خاتمة

تتبع البحث مفهوم التأويل من خلال معاني اللفظ في الخطاب الديني (القرآن والحديث)، ومن منظور علماء الإسلام، ثم من خلال ما اصطلح عليه المحدثون عربا وغربيين.

فأما في **الخطاب الديني**؛ فقد جاء لفظ التأويل بأربعة معاني:

الأول: التأويل المعادل للتعبير، وفيه بدا واقعا على الحقيقة، ليكون المرئي هو عينه الحادث على نحو البشرى والتحذير، وواقعا على الاستبدال بالصرف إلى معنى يستند إلى شاهد كآية أو حديث أو عرف لغوي اجتماعي، أو يستند إلى قرينة داخلية أو خارجية قريبة أو بعيدة، كما يمكنه أن يأتي حرا من غير شاهد ولا قرينة.

الثاني: التأويل المعادل للفهم، وفيه يجب حمل الملفوظ على أحسن وجوهه الدلالية، ويظهر معه جودة المأخذ وحسن التقدير، والمقارعة بغيره، فيدفع الضعيف ويثبت ما تبيَّن أنه الصحيح استفصالا.

الثالث: التأويل المعادل للحقيقة، ويتعين معه ظهور الحقيقة في الاستقبال زمنا، فتمحو الفهم القديم القائم على التكذيب والجحود، وتثبت الفهم الجديد الذي أُخبروا به في الدنيا وأنكروه.

الرابع: التأويل المرفوع إلى الله: (المحكم والمتشابه)، وفيه يظهر النص الديني إما محكما وإما متشابها، والناس تبعا لذلك راسخ في العلم وزائغ قلبه، والمحمول الدلالي من حيث المعرفة مطلق يتعادل فيه القصد والفهم وكلاهما عند الله يقينا، وعند البشر نسبي يتنوع الفهم فيه مع ثبات القصد، فيكون الأول-الفهم- قطعيا في مواضع وظنيا في أخرى، على أنه في حينه وزمانه هو المراد بأغلب الظن، مما ينتج عنه ضرورةً الصحيح من التأويل والفاسد منه، لأن الأمر معقود على اختلاف المدارك.

وأما **من منظور علماء الإسلام**؛ فتجاذب التأويل أهل الاختصاص، وتعلق يقينا بدلالة الملفوظ المنطوقة والمفهومة بالموافقة والمخالفة على ثنائيتي القصد والفهم؛ فارتبطت الدلالة الحقيقية بالقصد أصالةً، والدلالة الإضافية بالفهم تبعا، والأولى مقصودة لذاتها لوضوحها وانكشافها، والثانية مقصودة لغيرها لخفائها وقيامها على الاستنباط. فتعيَّن حدَّ التأويل نظريا كما يلي:

- **التأويل بمعنى الرجوع إلى الأصل**، وفيه تتعيَّن العودة إلى أوَّل الشيء، وأوَّل أمره، بوصفه مقصودا بملفوظ ما يجب أن يُفهَم عليه.
- **التأويل بمعنى ما ينتهي إليه الشيء**، وفيه غايته ومنتهاه، كما هو حال التفسير وتعبير الرؤى.
- **التأويل في مقابل التفسير تساويا وتمايزا**، وغايته تعادلهما أو اختلافهما دلاليا.

– **التأويل بمعنى حمل الكلام على معنى بغير لفظ المنطوق**، ليكون المراد ليس المنطوق لتعين غيره بديلا عنه، ويلزمه بالضرورة القرينة أو الدليل الصارف، نصا آخر أوقياسا راجحا.

وفي جميع الحالات ينتهي الأمر عند ثنائية القصد والفهم، فإذا تعادلا –الفهم والقصد– كان التأويل تاما، وإذا زاد أحدهما على الآخر تعيَّن في الفهم النقص والقصور أو الزيادة محمودها ومذمومها، لأن التأويل في الثقافة العربية تجاذبه أهل الأثر وأهل الرأي، ليكون الوضع كما يلي:

– **التأويل** هو **التفسير** و**تحصيل المعنى** المراد من الملفوظ بناءً على ما تقتضيه قواعد اللغة وأسباب النزول أو الحوادث.

– **التأويل** هو **دفع الإشكال ورفع اللبس** في العقائد وفق التوجه الذاتي والإيديولوجي، بما هيَّأ مناخا للخلاف ازدهر فيه التأويل.

إن مدار الخلاف الصفات الخبرية، فنشأت مصطلحات التمثيل والتشبيه والتكييف، والنفي والتعطيل على أساس المنطق والعقل. فصار **التأويل مخرجا لفهم ملفوظ ما** بسبيل ما تجعله يحصل المعنى المقصود سواء تعلق الأمر بقصده أصالةً أو بإضافاته تبعًا، بامتلاك القدرة على إنشاء المعادلات بين الرموز وما تحيل عليه. وقد تعينت هذه القدرة(آلية التأويل) عند العرب القدامى باللفظ الظاهر فيما صُرفَ عنه محتملا لما صُرف إليه، والدليل الصارف إلى الترجيح المختار.

وأما عند **العرب الجاهليين**؛ فقد تعيَّن أول أصول صرف اللفظ عن ظاهره، جحودا وإنكارا وتكذيبا، وهم الذين جاءهم البيان التام، فمالوا إلى اتهام النبي–صلى الله عليه وسلم– ووصف الوحي بالسحر والجنون والشعر، لما فيها من استبدالات مقصودة فهما للوحي وتقابلا مع قصد البيان الوارد إليهم.

وأما عند **المحدثين**، فإن التأويل يرتبط بعدة وسائط؛ أولها **جدلية القصد: المقام/النص أو النص/المقام**، ومفادها إدراج النص في مقام معطى يُفهَم فيه ومن خلاله، أو يصنع النص معناه ومقامه من ذاته مكتفيا بها، في غير ما حاجة إلى سواها. وثانيها **اهتمامات المؤول ولاوعي المبدع**، إذ ينساق المؤول وراء توجهاته واهتماماته التي يجد لها في النص مثيرا فتستجيب له من خلاله، كما يجد في الملفوظ اللاواعي مادةً حيةً للتأويل يبديها معنى النطق وتشتمل على معنى الناطق. وثالثها **النص والتأويل**، فبانفتاح الأول وإمكانية تعدد الثاني، يكون التأويل صورة ثانية للملفوظ الأصلي على أساس إعادة الإنتاج، تيسيرا وشرحا وتفسيرا، مهتديا بمنهج ما، فيعيد صناعة

القصد ليقابله بالفهم المراد أصالة وتبعا، وهما مستويان يندرج ثانيهما تحت الأول، ويجمع بينهما إجمالا الاستيعاب الكلي. وعليه؛ يكون **التأويل عالما ممكنا يمليه تفاعل قصد النطق المشتمل على قصد الناطق، وفهم المؤول، وتحكمه علاقات اتساق مبنية على نوع من الوهم، ويستدعي إثبات وجوده التدليل على ذلك الوجود – شرحا وتفسيرا– للاستيعاب المجمل داخل حدود هذا العالم.**

يلي الفهمَ والاستيعابَ مرحلةُ الشرح والتفسير الشمولي الكامل، مشكلا بنية تأويلية منسجمة، تتأسس على تماثل موضوع نص التأويل(الاستجابة) والنص الأصلي (المثير)، بملء فجوات اللاتحديد في الخطاب الشعري، وترجيح احتمال ما (العالم الممكن)، بما لا يقين فيه، إنما هو أغلب الظن بوصفه نشاطا تأويليا.

يتعلق هذا النشاط التأويلي **بالآليات** الإجرائية التالية:

1. التحليل وجرى على نص واحد، هو **(من الأعماق)**، الذي تبيَّن أنه الصورة الكاملة والمرتَّبة لمحطتي اللقاء والفراق في الشق الأول من الخطاب الشعري، الذي تؤدي فيه **شبكة المعينات** الدور الأساس في تعيين إطار التخاطب وتحليل عملية الاتصال، كاشفة على **المخاطِب** و**المخاطَب** و**الرسالة** والمرجع، والوضع، ومحققةً في الوظائف وأكثرها شيوعا وطغيانا.

وترتسم مع **الموجهات** المعالم العقائدية للشاعرة ومرجعيتها الفكرية، وهو عالمها الخاص الذي يُطرَق بجملة **المربعات السيميائية** المحلّلة للأفعال القولية من الجهات الأربعة: جهة الكينونة والظهور، ثم جهة الفعل، ثم جهة المعرفة، وأخيرا جهة الضرورة والإمكان. كما يبنى هذا العالم على جملة **الثنائيات** المرتبطة بالتجربة الشعورية، تناقضا وتضادا وتداخلا في النفي والإثبات. كما تعمد **آلية التحليل** في نهاية كل بنية فرعية على تتبع شعور الشاعرة وتمثيله رسما، اعتمادا على الحس الذوقي الانطباعي، والفعل الرياضي المنطقي، المحمول في ألفاظ الخطاب الدالة على ذلك الشعور. إن **التحليل** محطة قبل **القراءة**، وهي التي تكمله وتجبر بقية فجواته.

2. القراءة وقد وقعت على كل الشق الأول من الخطاب عدا **(من الأعماق)**، لتجيب عن كل التساؤلات المكملة للإجراء التحليلي. وتقوم آليتها على:

- **عرض** وجوه المعنى بوصفها **احتمالات ممكنة**.

- **اختيار** وجه وبيان صحته مقابل **تهميش** الباقي وبيان ضعفه أو عدم ملاءمته لمعنى السياق، مع التركيز على وحدة نواة الدلالة بين المختار من الوجوه والمتعيّن سلفا.

- تعيين **الاعتراضات** التي تقوم عائقا على صحة التأويل، و**دفعها** بما يلائم سلامة الاختيار المعنوي تثبيتا له، وتشكيلا للرؤية الواحدة.

3. التكرار وجرى على جزء من الديوان كما هو الحال هنا مع (**الليل والفرسان**)، وقد تحقق **بالآلية** التالية:

- تتبع التكرار تشاكلا لتعيين ما كان تاما ترددا من الألفاظ والتراكيب.

- تعيين المعنى الظاهر من هذا التكرار، وتأكيده من خلال التراكيب المكررة بالزيادة والنقصان.

- تعيين عناصر البنية الشعرية وتكررها في كل نص على حدة كما وردت، وبما يخالف الاستخدام العام عند كل الناس، ويحدد الاستخدام الخاص عند الشاعرة، أي تعدي المدلول العام إلى القصد الخاص.

- اختيار ما توافق مع المعاني المكتشفة وتصنيفها مع بعضها، وتهميش المخالف لها، ودفعه بما تقتضيه الحال والمعقول من الصرف الجائز.

- إجمال التشاكلات والتباينات اللفظية والمعنوية في الحقول الدلالية التي شكلت الخطاب الشعري عند فدوى طوقان.

لقد سرى التأويل أفقيا على جملة **الحدود**، وعموديا على **مستويات** تتصل أساسا بالآلية المختارة. وأول الحدود **المجمل** المشتمل على استقصاء الكاليغرافات والعناوين والتقديمات والتعقيبات والتهميشات، حيث تعيّنت التوقعات الأولية، وبُنيت الآفاق بشيء من الظن، وحُدّد بناء الخطاب الكلي، ليتأكد الكل في **المفصل** و**الحر**.

وثانيها **المفصَّل** من التأويل الذي شمل التحليل والقراءة، وتعلَّق التأويل **الحر** بالتكرار؛ فجاءت **المستويات** في **التحليل** تقريرا **للمعنى الحرفي** القريب الذي هو الحد الأدنى لقاعدة الاتفاق والتفاهم، ومنه إلى **المعنى الأوسط** المعيَّن **بمعنى المعنى** وبه ارتبطت جملة **المواقف** التي ميزت حال المخاطب، وتوافقت مع المعنى القريب. لينتهي الحال عند **تضاد العوالم**، وهو **المستوى الآخر للتأويل**. وتعلقت مستويات التأويل في **القراءة** بالموضوع كما سيأتي، وجرى **التأويل الحر** بآلية **التكرار** على ثلاثة **مستويات**:

-الأول: تعيين المعنى الذي يفرضه التشاكل اللفظي والتركيبي والتباين المعنوي.

-الثاني: الخروج إلى الحقول الدلالية المشكلة للمعجم الشعري: حقل الطبيعة الحية والصامتة وحقل الحرية، وحقل الاحتلال وحقل المكان، وحقل الاغتراب والانكسار والشجن. ومجال التأويل يجري على منطوق الخطاب.

-الثالث: التحول إلى مجال التأويل في مفهوم الخطاب بالخروج إلى علاقات الحضور والغياب والموافقة والمخالفة، مع عناصر الأزمة: الإنسان والمكان والزمان والقيم المفتقدة والصورة في تماثلها وتعارضها وتحولاتها، والرؤية من الذاتية إلى الجمعية فالكونية.

لقد ارتبطت هذه الحدود والمستويات بآلياتها مع **موضوع** الانفعال الشعري عند فدوى طوقان تحت سقف **النقص والفقدان**، ورجاء **التعويض** في الإخوة والأحبة والوطن، ليستحوذ التعويض بالوطن والحرية والهوية على كل أشكال الفقدان المؤسسة لمأساتها؛ فجاء الموضوع صراعا للإنسان مع الزمن–وهو النموذج في الشق الأول من الخطاب– تشكله ثلاث بنيات هي: بنية الفناء وبنية التحول وبنية الانكسار والشجن، ترتبط بها خمس علاقات زمنية هي: زمن للضياع والتيه ولحظة اللقاء وزمن التوتر، ثم لحظة الفراق وزمن المناجاة والنحيب، مشكلةً في كليتها نموذجا قائما على التقابل والتضاد هو محمول ثنائيتي اللقاء والفراق، والفناء والحياة، وقد تكررتا تناصا أو إعادة إنتاج موضوعاتي على الحقيقة وعلى الحلم والأمل، متعالقةً بموقفها من القدر والنار والزمن واللقاء والفراق، مما صرفها أحيانا إلى التفويض والتضرع طلبا للطمأنينة والسكينة، بعد أن وصل صراع الرغبات إلى أوجِّهِ، فنما أمل العودة والتحرر، بوصفه المعوِّض عن كل حالات الحرمان والفقدان التي لازمت حياتها. وفي النموذج الثاني – صراع الإنسان مع الإنسان– بنية واحدة شكلتها ثلاثة أزمنة؛ زمن للثورة والرفض، وزمن للحلم والحنين وآخر للهوية والوطن، وقد ارتبطت بمواقف العالم من القضية الفلسطينية، وموقفها وموقف الفلسطينيين منه، عارضةً كل المأساة حكيا، جامعةً الذات والأمة والوطن وأخبار الحال في فلسطين وخارجها، مع اللاجئين والأسرى والمغتربين، حتى بدا الديوان قصة شعرية تواصل نموُّها مع الحدث التاريخي.